الدبلوماسية في عصر الحروب الصليبية
٤٩١- ٥٨٩هـ/ ١٠٩٧- ١١٩٣ م

د. علي حسين علي
مدرس
كلية التربية / جامعة كركوك

د. علي سلطان عباس
استاذ مساعد
كلية التربية / جامعة كركوك

الملخص:

نال مصطلح الدبلوماسية اهتمام الباحثين في العلاقات الدولية والقانون الدولي العام ، وكان من بواعث هذا الاهتمام بالدبلوماسية ما لها من اهمية في تاريخ الانسانية والعلاقات الدولية ، وهي في اصولها ترجع الى تسميات قديمة استعملها اليونان القدامى في علاقاتهم واداراتهم ثم انتقل منهم الى الرومان ، ومن هؤلاء الى اللغات الأوروبية الحديثة كالفرنسية والانجليزية ، كما انتقل الى العربية وغيرها من اللغات . ومن اصل الدبلوماسية جاء اسم الوثيقة او المكاتبة الرسمية والتي كان يبعث بها الحكام واصحاب السلطان بعضهم الى بعض في علاقاتهم الرسمية ، وكانت تخول لحاملها امتيازات ومعاملة خاصة اثناء سفره لاداء المهمة الملقاة على عاتقه .

ومن المؤكد ان المسلمين منذ فترة مبكرة من تاريخهم عرفوا العلاقات الدبلوماسية كوسيلة أساسية في سياستهم الخارجية ، ومارسوها في علاقاتهم مع الدول غير الاسلامية ، فقد وجدوا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساسياً مكنهم من الدخول في العلاقات وعقد ما يلزم من الهدن او المعاهدات وفقاً لما تسمح به الشريعة الاسلامية ، واستمر الخلفاء المسلمون والولاة والامراء في ممارسة الدبلوماسية الى جانب الجهاد سواء أكان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين او الأمويين او العباسيين مع ملاحظة ان هذه الممارسات الدبلوماسية ازدادت وتطورت مع مرور الزمن وفقاً لما اقتضته الظروف الراهنة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الدراسة سعت الى القاء الضوء على القواعد التي سمح بها الاسلام للتعامل في مجال العلاقات مع الدول غير الاسلامية في العصور الوسطى ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالجهاد ، أو السلم والصلح وعقد المعاهدات وتبادل الرسل والسفراء وما يتصل ذلك من امور ، وكذلك الوقوف على كل ما يتعلق بالقواعد الدستورية الخاصة بمعاملة الرسل والسفراء عند عبورهم حدود الدول والاقاليم الاخرى والحصانات التي يتمتعون بها والصلح والفداء ونقض المعاهدات وغير ذلك من الشؤون الدولية وكذلك التطرق الى احكام تلك العلاقات ولاسيّما الأمان على اختلاف ضروبه وألفاظه .

قسمت الدراسة الى مبحثين وخاتمة ، عالج المبحث الاول سياق التمثيل الدبلوماسي والمراسلات الدبلوماسية ابتداءاً من اصول النظم الدبلوماسية الاسلامية والتعريف بالرسل والسفراء فضلاً عن الوقوف على شروط انتقاء السفراء ، وديوان الانشاء ودوره في المراسلات واوجه الغرض منها .

في حين تطرق المبحث الثاني الى العلاقات الدبلوماسيّة الاسلامية في بلاد الشام مع الصليبيين متناولاً العلاقات الدبلوماسية أثناء الحملة الصليبية الاولى ، مركزين بذلك على الاوضاع السياسية في بلاد الشام واثرها في قيام العلاقات الدبلوماسية ولاسيّما في عهد الوزير الفاطمي الافضل واتصالاته

الدبلوماسية أبان الحملة الصليبية الاولى ، هذا الى جانب الحديث عن امارة دمشق وسبل اتصالاتها بالصليبين . كما كُرس المبحث للحديث عن علاقات السلطان صلاح الدين الايوبي مع الصليبيين ، باعتبارها احد نماذج النمط الدبلوماسي الرفيع الذي استعمله المسلمون في مراسلاتهم .

المبحث الاول
الشروط الواجب توفرها في الترسل

بطبيعة الحال لا يمكن تصور الأصول التي سارت عليها النظم الدبلوماسية في عهد الحروب الصليبية كما هو معهود الآن في العصر الحديث من حيث اعداد دور دائمة للسفارات في عواصم البلاد كما لا يوجد سفراء يمثلون بلادهم بشكل دائم ومستمر مع البلاد التي لهم اتصالات بها (١) ، الا أنه يمكن القول انها كانت غير منتظمة ومتقطعة ولا تُفعّل وتمارس الا عندما تقتضي الحاجة لها ، أو بعبارة اخرى كلما دخلت الخلافة العباسية أو الإمارات الإسلامية في ازمات وقضايا تحتاج فيها الى الحوار او الهدنة لحل المشاكل والأزمات .

لا شك ان الدلالات اللغوية لكلمة رسول قد أطنب اللغويين في ذكرها لكن أهم ما يمكن قوله ان الرسول هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض (٢) . وكان الرسل أو السفراء يُبعثون لإجراء بعض المهام والقيام بها على قدر كبير من المسؤولية وذلك حسب الظروف التي تمر بها البلاد سواء أكانت في أوقات السلم أو على الأغلب في أوقات الحروب .

وحسب نطاق البحث فان العلاقات العسكرية التي دامت قرابة قرن من الزمان بين المسلمين والإفرنج ، تلك العلاقات التي غالباً ما كانت متوترة مع الممالك والدول الاسلامية المجاورة للدولة الأيوبية ، هذا الى جانب ان تلك العلاقات كانت في بعضٍ منها ودية ، فمن الطبيعي ان يتخلل العلاقات المتوترة فترات من السلام تنشأ نتيجة لمفاوضات يعقبها اتفاق سلام ، كثيراً ما اطلق عليه بـ معاهدة ، هدنة ، عقد صلح وغيرها (٣) .

وأشار المؤرخون المسلمون وخاصة من اهتم منهم بالتراتيب الادارية وبمؤسساتية الخلافة أو السلطنة – كالقلقشندي مثلاً - الى الشروط الواجب توفرها في السفراء وهي شروط تنم عن خبرة ودراية في ادارة العلاقات مع الأخرين وسبل تحقيق امن تلك العلاقات والحفاظ عليها ، ابتداءاً من شخصية السفير أو الرسول مروراً بالخصائص التي يمتلكها السفير وأهمها ما يلي" يُستدل على عقل الرجل بكتابه ورسوله ، وقد قيل من الحق على رسول الملك ان يكون صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعه ، وأن يكون بصيراً بمخارج الكلام واجوبته ، مؤدياً للألفاظ عن الملك بمعانيها صدوقاً بريئاً من الطمع ، وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ، ولا يرسل للملوك الاجانب إلا من اختبره بتكرير الرسائل الى نوابه وأهل مملكته ... " (٤) .

في حين وضع مؤرخ واداري أخر شروط تكاد تكون أكثر صرامة وشدّة في قضية انتقاء السفراء فقال : " يكون السفير مذكوراً ، وسيما قسيما ، لا تقتحمه العين ولا يزدري بالخبرة ، عفيفاً جيد اللسان ، وحســن البيان ، حاد البصر ، ذكي القلب يفهم الأيماء ويناظر الملوك على السواء ، ... ويجب أن يجمل بكل ما أمكن الوافد ، والعـامة ترمق الزي أكثر مما ترمق الكفاية والسداد ، ... ويجب أن تنزاح علله فيما يحتاج اليه ، حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه ، فان الطمع يقطع الحجة ، والرسول أمين لا أمين عليه ، فيجب أن يرهن بالإحسان والاتصال عليه ، ... " (٥) .

كما يضع " لقلقشندي " الشروط علي الخليفة أو السلطان الذي يرسله الرسول وينوب عنه في ابداء رأيه أو موقفه من أحدى المسائل قائلاً : " وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ، ولا يرسل للملوك الاجانب الا من اختبره بتكرير الرسائل الى نوابه وأهل مملكته ، فقد كان الملوك فيما سلف

من الزمان اذا أثروا ارسال شخص مهم ، قدموا امتحانه بارساله الى بعض خواص الملك ممن في قرار داره في شيء من مهماته ، ثم يجعل عليه عيناً فيما يرسل به من حيث لا يشعره ، فاذا ادى الرسول رسالته رجع بجوابها ، وسأل الملك عينه ، فان طابق ما قاله الرسول ما يأتي به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة والتقدمه عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره " (٦) . ومهما يكن من أمر فان انتقاء السفراء لم يأتِ من عدم ولم يتشكل في فراغ وانمــا جاء اختيارهم من بين الأمراء وكبار موظفي الدولة نظير الوزراء و القضاة وكبار العلماء وغيرهم .

ديوان الإنشاء ودوره في المراسلات الدبلوماسية

لعل أهم ما يؤشر أثر ديوان الانشاء في المراسلات هو حجم المؤلفات العديدة التي وضعها بعض كبار المسؤولين بديوان الانشاء بغية تنظيم العمل به وضبط ما يصدر عنه من الرسائل (٧) ، ونال قصب السبق فيها كتاب " صبح الاعشى في صناعة الانشا " للقلقشندي لوفرة وغزارة المعلومات التي يقدمها وشمولية موضوعاته ودقته في عرض مادته (٨) .

وكان يُشترط فيمن يعمل في ديوان الانشاء أن يكون على مستوى رفيع من الكفاءة والثقافة والخبرة والدراية السياسية فضلاً عن وجود طبقتين أساسيتين من الكتاب : الطبعة الاولى أو " طبقة كتاب الدست " وهم الذين يحضرون مع رئيس الديوان بمجلس السلطان على اعتبارهم خبراء بقواعد المراسلة والكتابة وصيانة الرسائل التي ترسل للملوك والامراء ، أما الطبعة الثانية أو" طبقة كتاب الدرج "، والدرج هو الورق الذي يكون على شكل مستطيل مركبّ من عدّة أوصال متلاصقة ، وهؤلاء الكُتّاب هم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر (٩) .

ومما تجدر الاشارة إليه ، أنه نظراً لطبيعة العلاقات الخارجية للدولة الايوبية مع ملوك وامراء من الأرمن والإفرنج والروم وغيرهم ، فقد حتم ذلك ضرورة تنظيم وضبط هذه العلاقات وفق الرسائل المتبادلة ، لذلك وقعت مشكلة تعدد اللغات بوصفها أحد العقبات الكبرى لديوان الرسائل ، الامر الذي دعا الى ضرورة وجود موظفين مختصين بعملية الترجمة يعملون في الديوان ويترجمون إلى أكثر من لغة وذلك عقب ورود رسائل الإفرنج ، يساعدهم في ذلك المسؤولون في الديوان والذين تناط بهم عملية استلام الرسائل وفحص ختمها ثم فكّها ، ثم القيام بترجمتها بعد ذلك من قبل مترجمون بالأبواب السلطانية (١٠) ، مع الحرص الشديد على عدم التلاعب بها عن طريق آلية دقيقة لعملية الترجمة ثم يتعهد المترجمون بكتاب الترجمة في ورقة مفردة خاصة ويلصقونها على ظهر الكتاب الوارد (١١) ، وبعهدها يُكتب الرد من واقع النص المعّرب (١٢) ، وأخيراً يذكر المترجم اسمه وتاريخ ترجمته ويشهد على ذلك شاهدين على أن ما ذكره هو تفسيراً للرسالة بلا زيادة ولا نقصان مع تحذيره من مغبة الزلل أو التحريف لأن غيره سيحضر لتفسير الرسالة فيخاف ويؤدي ، الأمانة ، لأن أكثر من يُترجم على مذهب صاحب الخط ، وبهذا يضمن صحة الترجمة (١٣) .

المبحث الثاني
السفارات الدبلوماسية بين العرب المسلمين و الصليبيين الافرنج

أن الفاحص المتأمل للأوضاع السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، تلك المنطقة التي كان عليها ان تواجه العدوان الصليبي ، والمستعرض لأهم معالم العصر الذي اقام فيه الصليبيون في الشرق على امتداد قرن من الزمان – نطاق الدراسة – يجد العديد من العوامل والاسباب السياسية التي جعلت المسلمين لا يحجمون عن اقامة علاقات دبلوماسية مع الصليبيين كلما اقتضت ذلك ضرورة من الضروريات أو كلما رأى المسلمون في ذلك تحقيقاً لمصلحة من مصالحهم .

ويمكن القول ان الاتصالات الدبلوماسية قد بدأت منذ باكورة وصول الإفرنج الى سواحل بلاد الشام ، وأن هناك ما يدل على أن بعض الامراء المسلمين تراسلوا مع الإفرنج وان بعض الحكام قد ابدى استعداده لعقد اتفاقيات معهم ، حيث يلاحظ ان الصليبيين عند دخولهم الى بلاد الشام كان شغلهم الشاغل هو الحيلولة دون توحيد المسلمين على شكل جبهة قوية ضدهم ، وارتأوا مواجهة الإمارات الإسلامية الواحدة تلو الاخرى حتى يسهل عليهم اضعافهم والقضاء عليها . وكان من الطبيعي ان يسعوا الى ارسال رسلهم وسفراءهم الى بعض الامارات الاسلامية والدخول في مفاوضات متعددة معهم لاستمالتهم ولو بشكل مؤقت (١٤) .

وكان الوزيــر الفاطمي الأفضل واحداً من ابرز الأمراء المسلمين الذين اتصلوا بالإفرنج ، باعتباره مستأثراً بالنفوذ في مصر دون الخليفة الفاطمي ، وكان يتولى تصريف الأمور بها عند وصول الصليبيين الى المشرق الاسلامي ، حيث رأى ان يستغل الأوضاع التي استجدت بلاد الشام عقب وصول الصليبيين وانشغال السلاجقة في مواجهتهم في شمال بلاد الشام ، حيث أرسل جيشاً تمكن من ارجاع بيت المقدس للحكم الفاطمي (١٥) ، كما أرسل الأفضل سفارة الى معسكر الصليبيين المنصوب امام انطاكية ، وعلى الأغلب فان نوايا الوزير الفاطمي الأفضل كانت تتمحور حول الاستحواذ على املاك السلاجقة في بلاد الشام والسعي لتقاسم سلطانهم بينه وبين الصليبيين من اجل امتداد نفوذهم الى فلسطين .

ومن الأمثلة الاخرى للتقارب بين الطرفين تحقيقاً للمصالح المشتركة بينهما ما فعله حكام امارة دمشق الذين اصبحوا يخشون على كيانهم من أمراء حلب على أثر تزايد قوة الحلبيين وتوسعهم لرقعة امارتهم من أجل الجهاد ضد الصليبيين واقامة جبهة اسلامية موحدة بقيادة عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود (١٦) ، وعلــى اثر تزايد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق ، أتجه أميرها معين الدين أنر الى الملك الصليبي (فولك أوف آنجو Fulk of Anjou) للاستعانة به ضد أطماع عماد الدين وأُرسل أمير دمشق واحداً من ابرز رجالاته دبلوماسية وفراسة وهو اسامة بن منقذ كسفيراً له لدى الصليبيين سنة (٥٣٤هـ / ١١٤٠م) (١٧) . وسعياً من حاكم دمشق أنر لحث الصليبيين على مساعدته ، أبرز لهم خطر عماد الدين وحذرهم من مغبة تركهُ للأستحواذ على دمشق ، وأنه ان ملكها لا يبقى لهم معه في بلاد الشام مقام (١٨) .

وأكد ابن القلانسي ان دمشقاً عقدت تحالفاً مــع مملكة بيت المقدس بقوله : " وكان قد تقرر الامر مع الإفرنج على الاتفاق والأعتضاد والمؤازرة والاسعــاد والامتزاج في دفعه – أي عمــاد الدين زنكي – والاختلاط في صــده عن مراده و منعه ، ووقعه المعاهدة على ذلك بالايمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا على ذلك مالاً معيناً يحمل اليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه ، وقوة ورهاناً تسكن بها نفوسهم ، وأجيبوا الى ذلك ، وحمل اليهم المال والرهائن من أقاربه المقدمين ، وشرعوا في التأهب للإنجاد والاستعداد للمؤازرة والاسعاد ، وكاتب بعضهم بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد على إبعاد اتابك وصده عن نيل الإرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره وإعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على عصب الإفرنج وقصد بلادهم " (١٩) .

ومما تجدر الاشارة إليه ، أنه كان على السلطان صلاح الدين الايوبي أن يبذل جهوداً استثنائية للحفاظ على وحدة امارة نور الدين او الجبهة الاسلامية الموحدة التي افنى عمره في سبيل تحقيقها ، وتطلب انجاز ذلك من صلاح الدين سنوات عديدة امضاها في جمع كلمة المسلمين ، وكان من الطبيعي

في السنوات الاولى من حكمه ان يضطر لمهادنة الصليبيين بغية التفرغ لانقاذ الوحدة الاسلامية ، وهكذا يبدو أنه كرر اتصالاته بهم ودخل في مفاوضات طويلة معهم وعقد العديد من المعاهدات ، مثل معاهدة سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م) ، ومعاهدة مع بوهيموند أمير انطاكيا سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) ، وكذلك مع ريموند أمير طرابلس سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) [٢٠] .

ولا بد من الاشارة الى ان الدوافع السياسية لم تكن هي الوحيدة التي تفعل فعلها في الساحة آنذاك ، وانما أُضيفت اليها حراجة موقفه السياسي والعسكري في السنوات الاولى من حكمه ، حيث كان من المتعذر عليه الاستمرار في القتال ضد الإفرنج دون توقف لما يتطلبه ذلك من نفقات باهضة ، وكذلك لما يصيب قواته المحاربة من عناء وأجهاد [٢١] .

وفضلاً عن ذلك كان الأمراء المسلمون يخشون في حالة تخلص السلطان من الصليبيين والقضاء على خطرهم ، سوف يتجه للحد من نفوذ هؤلاء الامراء ، وبالتالي فأنه من الطبيعي أن يقدم السلطان صلاح الدين وفي هذه المرحلة بالذات الى اقامة علاقات دبلوماسية مع اطياف مختلفة من الصليبيين ، سواء أولئك الذين استوطنوا البلاد الشامية أو مع الذين جاءوا مع الحملة الصليبية الثالثة ولاسّيما مع رتشارد قلب الاسد اثناء وجوده في بلادالشام [٢٢] .

النشاط الدبلوماسي خلال فترة حكم السلطان صلاح الدين الايوبي

كان للمفاوضات بالغ الاهمية في تسوية المشـاكل والخلافات القائمة والسعي الى التهدئة والعمل على وضع حدٍ للازمات والحروب ، وتشتمل على الكثير من الحوار والأخذ والرد ، كما انها تتأثر في مسارها بما يحيط بها من ظروف سياسية وعسكرية واقتصادية . ومع كل ذلك فإن المفاوضـات في ذاتها لا تضمن بالضرورة ايجاد حلول نهائية للصراعات والمشاكل القائمة بين الدول [٢٣] .

ويجب الاشارة الى امر مفاده أن البحث في مـجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية الخاصة بعصر الحروب الصليبية هو جانب صعب المنال وذلك لعزوف المصادر المعاصرة عن تقديم معلومات غزيرة ووافية لكل تفاصيل المعاهدات وفترات السلم وذلك لانها غالباً ما تحاط بالسرية والكتمان نظـراً لطبيعة الظروف الراهنة آنذاك ، وهذا يشكل احد الاسباب الجوهرية التي تقف وراء ندرة بل انعدام المعلومات في هذا السياق .

ولعـل واحدة من اهم صور المعاهدات التي تميزت بشكـل خاص بنشاط دبلوماسي لما دار فيها من مفاوضات وتبادلٍ للمراسلات حتى انتهاءها ، هي المعاهدة التي عُرفـت بصلح الرملة والتي عقدت بتاريخ (٢٢ / شعبان / ٥٨٨هـ - ٢ / ايلول / ١١٩٢م) بين السلطان صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا إبان احداث الحملة الصليبية الثالثة على أراضي المشرق الاسلامي .

واغلب الظن ان كلا الطرفين كانا على استعداد للدخول في مفاوضات تدعو للصلح والتهدئة وذلك امام تزايد الخطر الصليبي عقب وصول الحملة الصليبية الثالثة وما رافقها من اعمال عسكرية كبيرة ، ومثّل وصول الملك ريتشارد الى الشرق الاسلامي بداية المراسلات والمفاوضات بينه وبين صلاح الدين والتي استمرت حتى اثناء القتال الذي دار على مدينة عكا . الا ان الذي حفزها هو اشتداد المقاومة الاسلامية في عكا والتي اضطرت ريتشارد لإرسال رسوله طالباً الاعداد لعقـد جلسة خاصة يجتمع فيها مع السلطان صلاح الدين ، وبدون اجراء او تخطيط مسبق لثواب الاتفاقية والالية التي سوف تقوم عليها اجاب صلاح الدين على الطلب بصورة ذكية معتذراً عن هذا الاجتماع ومـطالباً بصيغة جديدة بقوله : " الملوك لا يجتمعون الا عن قاعـدة ، وما يُحسن الحرب منهم بعد الاجتماع والمؤاكلـة

... " (٢٤) . ويبدو ان الهدف من الاتصالات الاولى هو للتعرف على الاخر وقياس ردّة فعله ومدى استعداده للمواجهة .

ويمكن القول ان الفترة السابقة من المفاوضات تعد بمثابة المرحلة الاولى ، في حين بدأت المرحلة الثانية من المفاوضات بعد نجاح الصليبيين في الاستيلاء على عكا في (١٧/ جمادي الاخرة /٥٨٧ هـ - ١٢/ تموز/١١٩١م) (٢٥) ، وعلى الرغم من المذبحة التي تعرض لها المسلمون على أيدي الصليبيين ورغم اخلالهم بشروط الامان التي تعهدوا بها سابقاً ، الا ان ذلك لم يؤد الى انقطاع المفاوضات والمراسلات بين صلاح الدين والإفرنج وذلك لأسباب عديدة تتطلبها ضروريات المرحلة الراهنة .

وحتى في هذه المرحلة فإن السلطان صلاح الدين لم يقدم على استئناف المفاوضات مع ريتشارد الا بعد ان جمع أمراءه وعرض عليهم الموقف طالباً مشورتهم ، فأقنعوه بقبول الصلح ، ورأى السلطان أن لا يدخل شخصياً في الصلح وانتدب لذلك أخيه الملك العادل وزوده بتفاصيل تتضمن البلاد التي تقع ضمن مناطق المناصفة مع الإفرنج ، وأن المسلمين يسمحون باعطائهم صليب الصلبوت ، وان يكون لهم في كنيسة القيامة من يؤمّن لهم زيارتها ، بشرط عدم حمل السلاح ، وان الصلح ثلاث سنين من تاريخه ، هذا الى جانب ان السلطان طلب من أخيه أن لا يفاوضهم بالتنازل عن أي موقع جبلي (٢٦) .

وهكذا توصل الطرفان الى آلية لعقد الاجتماع واجراء مفاوضات الصلح ، استعداداً لذلك امر الملك العادل بنصب ثلاث خيم وتجهيزها بما يلزم من طعام وشراب لاجتماعه بالملك ريتشارد ، الذي حضر الى الملك العادل لإبداء وجهة نظره وفي البداية اخذ كل جانب يعرض وجهة نظره على الجانب الاخر وكان هناك تشنج في طرح الآراء وهذا ما صرح به ريتشارد بقوله : " القاعدة ان تعود البلاد كلها الينا ، وتنصرفون الى بلادكم " (٢٧) ، ثم استقر الرأي بينهما ان يتزوج الملك العادل أخت ريتشارد " على ان يحكم العادل في البلاد ، وتكون المرأة في القدس مع زوجها ، ويُرضي العادل مُقدَّمي الفرنج والدَّاوية ببعض القرى ، ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان " (٢٨) ، ألا أن صلابة رجال الدين الإفرنج وتعنت بعض أمرائهم ، واشتراطهم تنصر الملك العادل دفعه بطبيعة الحال الى الانسحاب من المفاوضات واعتذر الملك ريتشارد بامتناع أخته عن الزواج (٢٩) .

ان الظروف السياسية والعسكرية التي كان يمر بها كلا الطرفين فرضت عليهم الاستمرار في عملية المفاوضات حتى وان لم يتحقق الزواج السياسي وتوصلا في النهاية الى الصلح ، وعقد الهدنة بينهما ، يمثل الصليبيين في ذلك الملك الانجليزي ريتشارد في حين مثل المسلمين الملك العادل بتكليف من السلطان صلاح الدين الايوبي وتم توقيع معاهدة الصلح واهم ما نصت عليه المعاهدة ما يلي " أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وحيفا وعملها ، وان تكون عسقلان خراباً ، وتكون اللّدّ والرملة مناصفة بين الإفرنج والمسلمين " (٣٠) . وفي النهاية أمر السلطان صلاح الدين بتوجيه النداء في المعسكرات والاسواق : " ألا أن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل في بلادنا ، فليفعل ، ومن شاء من بلادنا ان يدخل بلادهم ، فليفعل " (٣١) .

ومهما يكن من امر فقد كان من الواجب الضروري ان تفضي المفاوضات بين الطرفين الى هذه النتيجة والاهم من ذلك ان تبقى مستمرة وذلك لحراجة موقفهما ، حيث أنه بعد انسحاب فيليب الثاني ملك فرنسا ومغادرته فلسطين دخل ريتشارد في موقف صعب جعله يطالب باستمرار الصلح بوصفه الحل الوحيد أمامه للانسحاب مع الحفاظ على جانبٍ من سمعته العسكرية ، أما السلطان صلاح الدين فقد أدرك مدى التعب الذي انتاب عسكره بسبب طول فترة القتال مع الصليبيين ابتداءً من حطين حتى مجيء

الحملة الصليبية الثالثة ، واصبح يخشى من وقوع التمرد داخل صفوف جيشه وهذا ما أشار إليه صراحة قاضي عسكره ابن شداد عندما صرح بان التفاوض مع الإفرنج كان يتوفر على جانب ايجابي للمسلمين بعد ان احس السلطان بصعوبة احراز نتائج حاسمة في محاربة الصليبيين اذا عزف عن اقرار الصلح ، بقوله : " لما عشى الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق الى الاوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم على يافا يوم امرهم بالحملة فلم يحملوا ، فخاف ان يحتاج اليهم فلا يجدهم " [٣٢] .

الخاتـــمة

وبعـد الانتهاء من إعـداد هذه الدراسة يمكن القول أنها خرجت بالنتائج الآتية .

ان الكثير من أصول النظم الدبلوماسية وقواعدها ترجع في أصلها إلى مبادئ الشريعة الإسلامية ، على اعتبار ان القرآن الكريم هو القبس الذي يستقي منه المسلمين معين معارفهم ، والاهتداء به لتحديد مسارات علاقاتهم الخارجية مع الأخر ، يدعم ذلك ما عرف عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تفاصيل حول إرسال الرسائل وبعث الرسل والسفراء لعقد المعاهدات والهدن ، فضلاً عن الاستئناس بـآراء الفقهـاء المسلمين ومـا أدلـو بـه مـن فتـاوى واجتهـادات أوصـوا بهـا لسـلاطينهم وولاتهـم وقـادتهم العسكريين للسير على خطاها في مجال العلاقات الدبلوماسية الخارجية .

ان الاتصالات الدبلوماسية قد بدأ منذ وصول الإفرنج الى سواحل بلاد الشام ، باعتبارها احد نماذج النمط الدبلوماسي الرفيع الذي استعمله المسلمون في مراسلاتهم مع الصليبيين إبان العصور الوسطى ، ومنها مفاوضات السلطان صلاح الدين مع ملك انكلترا في فترة وجود الحملة الصليبية الثالثة والتي اهتم بها وتابع تفاصيلها واحداً من أبرز مؤرخي سيرة صلاح الدين وقاضي عسكره وهو ابن شداد ثم يليه في الاهمية كلاً من العماد الاصفهاني وعز الدين بن الاثير .

وفـي النتيجـة يتضـح ان الـدور الافرنجـي الأبـرز فـي مُجمـل الحـروب لصـليبية متمـثلاً بـالملك ريتشارد الذي يـأس من تحقيق أي انتصـار ، بعد قيادتـه الاحتلال المأسوي لعكـا ، فـألح علـى الصـلح ، خاصة بعد تردّي أوضاع مُلكه في بلاده ، فحصل على صُلح الرملة ، الذي هو – في الحقيقة – تقرير واقع ، فسماح صلاح الدين بالحج السلمي كان موافقاً عليه ، ويُطبقه مُسبقاً ، ولم يمنعه أبداً وبعد رحيل ريتشارد ، أدارت ظهرها للقضية برُمتها .

الهوامـش

١. توفيق ، عمـر كمال : الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات السلميـــة مـع الصليبيين (الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦) ، ص١١٥-١١٦ .
٢. الجرجـاني ، السيد الشـريف علـي بـن محمـد ، كتـاب التعريفـات (بيـروت : دار احيـاء التـراث العربي ، ٢٠٠٣) ، ص٩١ .
٣. الحايك ، منذر : العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (دمشق ، دار الفكر ، ٢٠٠٦) ، ج٢ ، ص٣٩ .
٤. القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ، ١٩١٧) ، ج١ ، ص١١٦ .
٥. ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق : صـلاح الـدين المنجـد (القاهرة ، ١٩٧٤) ، (ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٢) ، ص٣٥ .
٦. القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص١١٦ .

٧. مثال ذلك كتاب " صبح الاعشى في صناعة الانشا " للقلقشندي وكتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " لابن فضل إليه العمري وكتاب ابن مماتي وغيرهم .
٨. ينظر : صبح الاعشى ، ج١ ، المقالة الاولى وبدايات الكلام في المقالة الثالثة عن الشروط الواحب توفرها في ريئس وموظفي ديوان الانشاء .
٩. القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص١٣٧-١٣٨ .
١٠. المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٣٥ .
١١. ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسـائل ، تحقيـق : علي بهجت (القاهرة ، ١٩٠٥) ، ص٣٣ .
١٢. القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص١٣٥.
١٣. ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسـائل ، ص٣٤ .
١٤. توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ، ص٥٨-٥٩ .
١٥. ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ، ١٩٠٨) ، ص١٣٥ .
١٦. عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٥) ، ص٩٢ .
١٧. اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص٧٢ .
١٨. ابن الاثير : الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٩) ، ج١١ ، ص٧٣-٧٤ .
١٩. ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٢ .
٢٠. ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص٤٦٤ .
٢١. العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي (تحقيق : محمد محمود صبح ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ) ، ص١٢٩ .
٢٢. عن اتصالات صلاح الدين ينظر : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص١٨٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١١٠ .
٢٣. عمر الخطيب : " الدبلوماسية والمفاوضة في الصراعات الدولية " المجلة العربية للعلوم الانسانية ، الكويت ، ١٩٨٥م ، العدد ١٧ ، المجلد الخامس ، ص٦٧ .
٢٤. ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٦٣ ؛ العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص٥٠١-٥٠٢ .
٢٥. ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٦٤-١٦٥ .
٢٦. المصدر نفسه ، ص١٧٨-١٨٠ .
٢٧. المصدر نفسه ، ص١٨٢ ؛ العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص٥٤٣ .
٢٨. المصدر نفسه والصفحة .
٢٩. المصدر نفسه والصفحة .
٣٠. ابن شاهنشاه صاحب حماه : منتخبات التواريخ ، ص٣٠٤ .
٣١. ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، ج٢ ، ص٤٠٥.
٣٢. ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٢٣٣-٢٣٥ .

المصادر والمراجع

- أ – المصادر الاولية :

١ - ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن علي :الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٩) .

٢- الجرجاني ، السيد الشريف علي بن محمد ، كتاب التعريفات (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ٢٠٠٣)
٣- ابن شاهنشاه ،محمد بن تقي الدين عمر الايوبي . صاحب حماه : منتخبات التواريخ ، تحقيق : حسن حبشي (القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٨) .
٤- ابن شداد ، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٤) .
٥- ابن الصيرفي ، ابو القاسم علي بن المنجب : قانون ديوان الرسائل ، تحقيق : علي بهجت (القاهرة ، ١٩٠٥).
٦- العماد الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن صفي الدين محمد : الفتح القسي في الفتح القدسي (تحقيق : محمد محمود صبح ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ)
٧- ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق : صلاح الدين المنجد (القاهرة ، ١٩٧٤) ، (ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٢).
٨- ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ، ١٩٠٨)
٩- القلقشندي ، احمد بن علي : صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ، ١٩١٧)
١٠- المقريزي ، تقي الدين ابو العباس احمد : السلوك في معرفة دول الملوك (القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٤٦)
١١- ابن منقذ ، ابو مظفر اسامة: كتاب الاعتبار ، حرره: فيليب حتي (الولايات المتحدة ، ١٩٣٠) .
١٢- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ٠ القاهرة، مطبعة دار القلم ن ١٩٦٠)

- ب- المراجع الثانوية :

١. توفيق ، عمر كمال : الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات السلميـــة مع الصليبيين (الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦)
٢. الحايك ، منذر : العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (دمشق ، دار الفكر ، ٢٠٠٦) .
٣. خليل ، عماد الدين : عماد الدين زنكي (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٥)

- ج - الدوريات :

١- الخطيب ، عمر : " الدبلوماسية والمفاوضة في الصراعات الدولية " المجلة العربية للعلوم الانسانية ، الكويت ، ١٩٨٥م ، العدد ١٧ ، المجلد الخامس.

أحيانا	نادرا